في ذكر
مشايخ هذا الزمان

لعلك تقول إن مشايخ هذا الزمان، الذين عُـدّوا مـن أوليـاء الرحمان، هم قوم مصلحون، فليحفِدْ إليهم المسلمون، فإنهم فانون في حب حضرة الكبرياء، ولا يضيّعون الوقت في الزهو والخيلاء، بـل يريدون أن ينتهج الناس مهجّة الاهتداء، ويُنقَلوا من فِناء الأهواء إلى مقام الفناء، وقد آثروا تلاوة القرآن على اللهو بـالأقران. تـراهم جالسين في الحجرات، منقطعين إلى رب الكائنات.

فاسمعْ مني.. إنّا نؤمن بوجود طائفة من الصلحاء في هذه الأمّـة، ولو كان الناس يكفّرونهم ويؤذونهم بأنواع الفِرْية والتهمة، ولكنّـا نجد أكثر مشايخ هذا الزمان، مرائين متصلّفين متباعدين من سـبل الرحمان. يُظهِرون أنفسهم في المجالس كالكبش المضطمِر، وليسوا إلا كالذئاب أو النمر. يحمدون أنفسهم متنافسين، ويقولون إنّا أهل الله ما أطعنا مُذْ يَفَعْنا إلا ربّ العالمين، وإن نفوسنا مطهّرة، وكؤوسـنا مُتْرَعة، ونحن من الفقراء، والمتبتّلين إلى الله ذي العزّة والعـلاء. ولم يبق فيهم كرامة مِن غير ذرف الغروب، مع عدم رقّة القلوب. وما

بقي بدعة إلا ابتدعوها، ولا مكيدة إلا تقمّصوها. ولا يوجد في مجالسهم إلا رقص يُمزَّق به الأردية، ويدمي الأقفية. وبما وسعت الدنيا عليهم بُدِّلتْ عرائكُهم، وصار مصلّى الحجرات أرائكَهم، فهذا هو سببُ نقيصة رويّتِهم ودهائهم، وطُرقِ إباحتهم وقلّة حيائهم. وإن الله إذا سلب من نفسٍ التقوى الذي هو أشرف النِّعم، فجعل تلك النفسَ كالنَّعَم، وإذا ختم على قلب نزَع منه نكات العرفان، وجعله كجبانٍ وحيلَ بينه وبين شجاعة الإيمان، فيصبحون كالنسوان لا كالفتيان، ولا يبقى فيهم مِن غير حُلِيِّ النسوة، مع شيء من الخيلاء والنخوة، ويُنزَع عنهم لباس الحِكَمِ البارعة، والكلمِ البليغة الرائعة، ولا يُعطَى لهم حظّ من مِسْك المعارف وريحِه الفاتحة. تكدّرَ سراج الإسلام مِن تكدُّر زيتِهم، وما هُمْ إلا كراويةٍ لبيتهم. أنقضَ ظهرَهم أثقالُ العيال، فيحسبون همومهم كالجبال الثقال، ويحتالون لهم كل الاحتيال، فما لهم ولدين الله ذي الجلال. تعرف رويّتَهم برُوائهم، وخيالَهم بخيلائهم. وقد وضح بصدق العلامات، وتَوالِي المشاهدات، أنّ أكثر هذه الفقراء ليس لهم حظّ من التقاة، ولا رائحة من الحصاة. يرون انهتاكَ حرمةِ الدين ولا يخرجون من الحجرات، ولا تتوجّع قلوبهم كالحُماة، بل سَرَّهم مشاغلُهم بالأغاني والمغنّيات، والمزامير مع قراءة الأبيات، ولا

يعلمون ما جرى على أمّة خير الكائنات، وما قرأوا من مشايخهم سَبَقَ المواساةِ. يجمعون كلّ ما يُعطى ولو كان مال الزكاة والصدقات. تحسبهم أحياءً وهم كالأموات، إلا قليلا من عباد الله كذرّة في الفلوات، وتجد أكثرهم غريق البدعات والسيئات. فيا أسفًا عليهم! ما يجيبون الله بعد الممات؟ وكل ما كثُر مِن اجتراء النصارى والمتنصّرين، فلا شك أن إثمه على هؤلاء الغافلين من المشايخ والعالمين، فإن الفتن كلها ما حدثت إلا بتغافل العلماء والفقراء والأمراء، فيُسألون عنها يوم الجزاء. قالوا نحن معشر العلماء والفقراء، ثم عملوا عملا غير صالح بالاجتراء، وطلبوا رزقهم بالمكائد والرياء. وترى بعض علمائهم تركوا شغل العلم وأخلدوا إلى الأرض وفِكر الزراعة، وما حفظوا مقامهم وما طلبوا فضل الله بالضراعة، وحسبوا عزازةً في الفلاحة، ونسُوا حديث الذلّة الذي ورد بالصراحة. فالحاصل أنهم اختاروا مشاغل أخرى كالحارثين، فكيف يقلِبون الطَرْفَ إلى الدين وينصرون الدين؟ وكيف يجتمع في قلب واحد فكرُ العُرمة وفكر الأُمّة؟ ومَن خرّ على دَوِيل لن يُفتح له باب الدولة.

يسألون الناس كالنائحات والنادبات، وأضاعوا القائت في فكر الأقوات. وترى بعضهم يرهنون قبور آبائهم عند غرمائهم،

ليتصرّفوا فيما وُقف عليها وليأكلوا ما عُرض على أجداث كبرائهم. وإنْ قلتَ، يا عافاك الله، أحسبتَ قبرَ أبيك شيئًا يُباع ويُشترى، يقول اسكتْ يا فضولي، لا تعلم ما نعلم ونرى. ويعُدّون إلى ألفٍ مِن كرامات أسلافهم، وما يخرج دُرٌّ مِن خِلْفِهم مِن غير إخلافهم. يدورون برُكْوةٍ اعتضدوها، وعصا اعتمدوها، وسُبحةٍ عدُّوها، ولِحًى طوّلوها ومدّوها، وحُللٍ خضّروها، وبَشرةٍ نضّروها، كأنهم أبدال أو أقطاب، ثم يظهر بعد برهة أنهم كلاب أو ذئاب، وغايةُ هِممهم جِراب، تُملأ فيه دراهم أو قَسْب وكِناب. لا تجد فيهم علامة مِن فقرهم من غير الذوائب المرسلة إلى تحت الآذان، كمثل العلماء الذين لا يعلمون مِن غير رسم الإمامة والأذان. ولا تجد في حجراتهم أثرًا من بركات، بل تجد كل أحد أبا أبي زيد في كذب وهَناتٍ. يأكلون أموال الناس بادّعاء القُطْبيّة والبَدَليّة، ولا يعلمون مِن غير طواف القبور والبدعات الشيطانية. وبعضهم في المجامع يتغنّون، وكمثل وليدةِ المجالس يرقصون، وعلى رأس كل سنة لتجديد البدعات يجتمعون. تجد فيهم مكيدة السنّور والفأرة، وسُمّ الحيّة والجَرارة. لا يوجد فيهم من الديانة إلا اسمها، ولا من الشريعة إلا رسمها. تركوا أحكام الله ذي الجلال، وخرقوا شريعة أخرى كالمحتال، ونحتوا من عند أنفسهم أنواع الأوراد

والأشغال، لا يوجد أثرها في كتاب الله ولا في آثار سيد النبـــيين وخيرِ الرجال، ثم يقولون إنّا نؤمن بخاتم النبيين، وقد خرجوا مـــن الدين كإخوانهم من المبتدعين. أَنَزَلَ عليهم وحيٌ من السماء فنُسِخَ به القرآن وسُنّة سيّد الأنبياء؟ كلا.. بل اتّبعوا الشياطين، وآثــروا الإباحة وأهواءِ النفس على ما أنزل أرحـــمُ الـــراحمين، وجـــاءوا بمحدَثات خارجة من الدين، وأحدثوا بدعات بعد نبيِّنـــا المكـــين الأمين، وبدّلوا حُللاً غيرَ حُلل المسلمين، وقلّبوا الأمـــور أكثرَهـــا كأنهم ليسوا من المؤمنين. المزامير أحبُّ إليهم من تلاوة القـــرآن، ودقاقير الشعراء أملحُ في أعينهم من آيات الله الرحمان. خرجوا من الدين كما يخرج السهم من القوس، وداسوا أوامر الله كل الدوس. ما ترى فيهم ذرّة من اتّباع السُنّة، ولا كفتيل من السِير النبويـــة. وكثير منهم فتحوا أبواب الإباحة، وأَوَوا إلى عقيدةِ وحدة الوجود ليكونوا آلهة وليستريحوا من تكاليف العبادة. يقولون إن كثيرًا مـــن الناس رأوا مِن دعائنا وجهَ الأهواء، ليُظَنَّ أن الأمر كذلك وهُمْ من الأولياء، وليسعى الناس إليهم بدارهم كما يسعون إلى الـــصلحاء. وإذا قُرئ عليهم كتاب الله أو قول رسوله لا يُطرِبهم شـــيء مـــن ذلك، ثم إذا قُرئ بيت من الأبيات فإذا هم يرقصون. ومَن لعنه الله فمَن يفتح عيونه؟ فليعملوا ما يعملون.